حقيقة المعركة بيننا وبين إسرائيل

أود أن أبين هنا بوضوح : نقطة مهمة ، كثيراً ما يشوبها الغموض أو الالتباس فى أذهان كثير من الناس ، ولا سيما من المتدينين المسلمين . وكثيراً مما تستغلها إسرائيل فى دعايتها الصهيونية ، لكسب الرأى العام ـ وخصوصًا الغربى ـ إلى صفها .

هذه النقطة تتعلق بأسباب المعركة بيننا وبين اليهود وحقيقتها ، فما هذه الأسباب التى أشعلت نار الحرب بيننا وبين اليهود فى فلسطين ، قبل أن تقوم إسرائيل فى سنة ١٩٤٨م وبعد قيامها إلى اليوم ؟.

هل نعادى إسرائيل لأنها ساميّة ؟ :

هل سبب العداوة والحرب المستعرة بيننا ـ نحن العرب والمسلمين ـ وبين إسرائيل : أنها دولة سامية ؟.

والجواب : أن هذا أبعد ما يكون عن تفكير المسلمين ، ولا يتصور أن يرد هذا بخواطرهم ؛ لسببين أساسيين :

الأول : أننا ـ نحن العرب ـ ساميون ، ونحن مع بنى إسرائيل فى هذه القضية أبناء عمومة ، فإذا كانوا هم أبناء إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، فنحن أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

ولا تستطيع إسرائيل أن تزايد علينا فى ذلك ، ولا أن تتهمنا بأننا أعداء (السامية) التى تتاجر بها فى الغرب ، وتشهرها سيفًا

فى وجه كل من يعارض سياستها ، أو ينتقد سلوكياتها العدوانية واللاأخلاقية ، بل اعتبر القرآن المسلمين كافة أبناء إبراهيم : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٧٨)

والثانى : أن المسلمين عالميون إنسانيون بحكم تكوينهم العقدى والفكرى ، وليسوا ضد أى عرق من العروق أو نسب من الأنساب ، وقد علمهم دينهم أن البشرية كلها أسرة واحدة ، تجمعهم العبودية لله ، والبنوة لآدم ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

وقال رسولهم الكريم : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب » رواه أحمد .

على أن اليهود اليوم لم يعودوا كلهم ساميين ، كما يزعمون ، فقد دخل فيهم عناصر شتى من سائر أمم الأرض ، كما هو معروف عن يهود (مملكة الخزر) وغيرهم . وهذا طبيعى ، فاليهودية ديانة ، وليست جنسية .

هل نعادى إسرائيل لأنها يهودية ؟ :

وإذا كانت (السامية) ليست واردة فى أسباب حربنا وعداوتنا لإسرائيل ، فكذلك (اليهودية) باعتبارها ديانة ليست هى السبب .

إن اليهودية فى نظر المسلمين (ديانة كتابية) من الديانات السماوية ، جاء بها رسول الله موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور ، وهو من أولى العزم من الرسل ، وفى القرآن نقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ (الأعراف: ١٤٤، ١٤٥).

والقرآن اختار لليهود والنصارى (لقبًا) يوحى بالقرب والإيناس منهم ، وهو (أهل الكتاب) وينايهم بذلك (يا أهل الكتاب) ويعنى به : التوراة والإنجيل ، إشعارًا بأنهم - فى الأصل - أهل دين سماوى ، وإن حرفوا فيه وبدلوا .

اليهود أقرب إلى ملة إبراهيم من النصارى :

بل أزيد على ذلك فأقول : إن اليهود - من الناحية الدينية - أقرب إلى المسلمين فى كثير من الأمور ، من النصارى المسيحيين ، لأنهم أقرب منهم إلى ملة إبراهيم عليه السلام ، سواء فى العقيدة أم فى الشريعة .

فإن النصارى غيَّروا كثيرًا من أصول الدين وفروعه ، على حين احتفظ اليهود ببعض هذه الأشياء مما ورث من ملة إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام .

فاليهود لا يقولون بالتثليث الذى يقول به النصارى ، ولا يؤلهون موسى كما يؤله النصارى المسيح عيسى عليهما السلام .

وإن وقع اليهود فى تشبيه الخالق بخلقه ، كما يبدو ذلك بجلاء لكل من يقرأ أسفار التوراة ، وحديثها عن الألوهية .

على أن كل ما يؤمن به اليهود فيما يتعلق بالألوهية والنبوة ، يؤمن به المسيحيون،لأن التوراة وملحقاتها (كتاب مقدس) عندهم.

ويزيدون على اليهود ما انفردوا به من تأليه المسيح أو القول بالتثليث .

واليهود يختنون أبناءهم على سنة إبراهيم عليه السلام كما يختن المسلمون ، والنصارى لا يختنون .

واليهود يشترطون الذبح لحل أكل الحيوانات والطيور . كما يفعل المسلمون ، والمسيحيون لا يذبحون لأن (بولس) قال لهم : كل شىء طاهر للطاهرين !

واليهود يحرمون الخنزير ، كما يحرمه المسلمون فى حين أحله النصارى .

واليهود يحرمون التماثيل التى تصنع للملائكة أو للأنبياء والقديسين ، كما يحرمها المسلمون ، فى حين لا يحرمها النصارى ، ولذلك امتلأت كنائسهم ومعابدهم بهذه الصور والتماثيل من كل حجم ولون .

فلو كنا نحارب اليهود من أجل العقيدة ، لحاربنا النصارى المسيحيين أيضًا .

ومن أجل هذا يتبين لنا خطأ بعض عوام المتدينين الذين يتوهمون أن الحرب القائمة بيننا وبين اليهود حرب من أجل العقيدة ، ومعنى هذا : أننا نقاتل اليهود ، لأنهم يهود كفروا برسالة محمد ، وحرفوا كلام الله عن موضعه ، شوَّهوا حقيقة الألوهية في كتابهم ، فقد شبهوا الخالق بالمخلوق ، كما شبه النصارى بعدهم المخلوق بالخالق ، ولوثوا صورة الرسل والأنبياء . . إلى آخر ما هو معروف عنهم ، مما حكاه القرآن من قتلهم الأنبياء بغير حق ، وتطاولهم على الله حتى قالوا : يد الله مغلولة ، وقالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء !.

وهذه النظرة التى قد تخطر فى بال بعض الناس خاطئة تماما ، فاليهود كما رأينا يعتبرهم الإسلام أهل كتاب ، يبيح مؤاكلتهم ، ويبيح مصاهرتهم ، وقد عاشوا قرونا بين ظهرانى المسلمين ، لهم ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ، وذمة جماعة المسلمين ، وقد طردهم العالم ، ولفظهم لفظ النواة ، من أسبانيا وغيرها ، ولم يجدوا صدرًا حنونًا ، إلا فى دار الإسلام ، وأوطان المسلمين ، ولم يفكر المسلمون يومًا أن يحاربوا اليهود .

بل هم قد بلغوا فى بعض الأقطار الإسلامية من النفوذ والغنى والقرب من الخلفاء والأمراء مبلغًا عظيمًا ، جعل بعض المسلمين يغبطونهم عليه أو يحسدونهم ، وقال فى ذلك الشاعر المصرى الساخر الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
المجد فيهم ، والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك!
يا أهل مصر ، إن نصحت لكم تهودوا ، قد تهود الفلك![1]

سوء موقف اليهود من دعوة الإسلام :

وربما كان سبب اعتقاد كثير من المسلمين أن اليهود أسوأ فى العقيدة من النصارى : هو سوء موقف اليهود من دعوة الإسلام ، ومن رسول الإسلام ، عليه الصلاة والسلام . كما يتجلّى ذلك فى موقف يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة .

فهو موقف فى غاية السوء والعداوة للدين الجديد ، والنبى الجديد ، رغم أنهم كانوا يبشرون قبل ذلك بنبى قد قرب زمانه ، وكانوا يهددون جيرانهم من العرب - الأوس والخزرج - أنهم سيؤمنون به ، وينضمون إليه ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم . ويبدو أنهم كانوا يظنونه من بنى إسرائيل ، فلما وجدوه من بني إسماعيل ، منعهم البغى والحسد أن يؤمنوا به .

وجاء فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

---

(١) انظر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ، ترجمة : أبو ريدة .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٨﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة:٨٩-٩١).

ومع كفرهم برسالة محمد ، فإن الرسول ﷺ ، بعد الهجرة ، عاهدهم وأقام معهم اتفاقية تقوم على التعايش والتناصر معا ، وكتب معهم (الصحيفة) الشهيرة التى اعتبرها الكثيرون بمثابة (الدستور) الذى يحدد العلاقة بينهم وبين المسلمين . كما يحدد علاقة المسلمين بعضهم ببعض .

ولكنهم سرعان ما غلبت عليهم طبيعتهم فى نقض العهود ، وتعدى الحدود ، والكيد للرسول وأصحابه والانضمام إلى الوثنيين فى حربهم للرسول ، حتى تحالفت بنو قريظة مع المشركين المغيرين على المدينة ، الذين أرادوا استئصال شأفة المسلمين ، وإبادة خضرائهم .

وكان لابد أن يقع الصدام بين الفريقين ، الذى انتهى بجلاء بنى قينقاع ، وإجلاء بنى النضير ، وقتل مقاتلة بنى قريظة ، وقتال أهل خيبر .

ونزلت آيات القرآن فى سور : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر وغيرها ، تندد بموقف اليهود وشدة عداوتهم

للمسلمين ، كما فى قوله تعالي : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ فى حين تبين قرب مودة النصارى للمسلمين ، حيث تقول الآية نفسها : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: ٨٢).

ولهذا تجد الذين دخلوا فى الإسلام من اليهود معدودين ، نتيجة لتعصبهم وغرورهم وزعمهم أنهم شعب الله المختار ، على حين دخلت شعوب كاملة من النصارى فى الإسلام ، مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأناضول وغيرها .

ثم كان من كيد اليهود للمسلمين بعد ذلك ما يحفظه التاريخ ، وما ترك أثره العميق فى أنفس المسلمين .

السبب الحقيقى لمعركتنا مع اليهود :

والواقع أن المعركة بدأت بيننا وبين اليهود ، بسبب واحد لا شريك له ، وهو : أنهم اغتصبوا أرضنا ـ أرض الإسلام ، أرض فلسطين ـ وشردوا أهلنا ، أهل الدار الأصليين ، وفرضوا وجودهم الدخيل بالحديد والنار ، والعنف والدم . . تكلم السيف فاسكت أيها القلم! وستظل المعركة قائمة بيننا وبينهم ما دامت الأسباب قائمة ، وسيظل الصلح مرفوضًا إذا كان مبنيًّا على الاعتراف بأن لهم حقًّا فيما اغتصبوه من الأرض ، إذ لا يملك أحد أن يتنازل عن الأرض الإسلامية ، إنما يمكن إقامة هدنة بيننا وبين إسرائيل ،

لفترة من الزمن، تقصر أو تطول، يكف فيها الطرفان عن الحرب، ويسود فيها الأمن، وتتبادل بعض العلاقات مع بعض.

أما مبدأ (الأرض مقابل السلام) فهو مبدأ غريب حقًا، فرضه منطق القوة الغاشمة للعدو، لا غير. لأن الأرض أرضنا، لا أرضه، حتى يتفضل بتنازله عنها، مقابل سلامه!

وحتى هذا السلام الأعرج، رفضته إسرائيل فى النهاية. فهى تريد أن تأخذ ولا تعطى شيئًا.

الطابع الدينى للمعركة:

وهذا لا ينفى الطابع الديني عن المعركة، فالمعركة - وإن كانت من أجل الأرض - لها بواعثها الدينية، وأهدافها الدينية.

فكل معركة يدخلها المسلم للدفاع عن حق، أو لمقاومة باطل، أو لإقامة عدل، أو للثورة على ظلم، فهى معركة دينية، لأنها معركة فى سبيل الله. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ (النساء:٧٦).

والإسلام يوجب على المسلمين - بالتضامن - الدفاع عن أرض الإسلام، ويعتبر ذلك من أقدس أنواع الجهاد، كما يعد من قُتِل فى ذلك شهيدًا من أعظم الشهداء. والجهاد - دفاعًا عن الأرض - فرض عين على أهلها حتى تتحرر، وإذا لم يكف أهلها للدفاع

عنها ، وجب على من يجاورهم ، حتى يشمل المسلمين كافة فى النهاية ، ولا يجيز شرع الإسلام للمسلمين أن يتنازلوا عن ذراع واحد من أرض الإسلام .

فإذا كانت أرض الإسلام هى أولى القبلتين ، وثالث المسجدين المقدسين ، كان الجهاد فى سبيل تحريرها أوجب وأعظم وأشرف ، وأعلى مكانًا فى دين الله .

وإذا كان مغتصبوها يحاربوننا بدوافع دينية ، وأحلام دينية ، كان أوجب علينا : أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به ، فإذا حاربونا بالتوراة حاربناهم بالقرآن ، وإذا رجعوا إلى تعاليم التلمود رجعنا إلى البخارى ومسلم ، وإذا قالوا : نعظّم السبت ، قلنا : نعظم الجمعة ، وإذا قالوا : الهيكل ، قلنا : الأقصى . وبالجملة إذا قاتلونا تحت راية اليهودية قاتلناهم تحت راية الإسلام ، وإذا جندوا جنودهم باسم موسي : جنَّدنا جنودنا باسم موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فنحن أولى بموسى منهم !

* * *